الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي و البحث العلمي

جـــامعة تيـــارت

قسم الآداب و اللغـات

فـرع التـاريخ

الأستاذة: كلاخي ياقوت

عنوان المداخلة:

من أعلام التواصل الثقافي بين حاضرة تلمسان و إقليم توات

الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي

الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي هو أحد أعلام الفكر في الجزائر ، يرجع نسبه إلى الحسن بن علي ، و حسب الشجرة الجامعة الكبرى لأنساب سكان توات ، فإنه قد ولد عام 790هـ/1388م.1

بدأ المغيلي دراسته بتلمسان فحفظ القرآن الكريم على يد الشيخ محمد بن أحمد بن عيسى المغيلي، و أخذ عليه بعض أمهات الكتب الفقهية في مذهب الإمام مالك، اشتهر بذكائه المفرط و علو همته و توقد ذاكرته، و لما اشتد عوده اتصل بالشيخ عبد الرحمن الثعالبي آخذا عنه تفسير القرآن و التصوف و القراءات و بعدها سافر إلى بجاية أين أخذ عن علمائها و شيوخها جملة من علوم التفسير و الحديث ثم رجع إلى تلمسان واستمرفي تحصيل العلم، بعدها عاد إلى توات التي وصلها عام 870هـ/1465م.2، فأخذ بها الشيخ يحي بن يدير ما كان ينقصه في علم الفقه.3

فأصبح من المتمكنين في العلوم الشرعية ، بعد أن درس الفقه المالكي و تمكن في اللغة العربية و ذلك ما سينطبع على أسلوبه الفصيح و بلاغة كتاباته، إضافة إلى معرفته لعلم س متفوقا في السياسة الشرعية و العقيدة الإسلامية و التوحيد، كما يعتبر من رواد علم المنطق باعتباره خبيرا في علم العروض و القوافي.4

و قد درس الشيخ المغيلي على يد العديد من العلماء و المشايخ بحكم أسفاره ومن أشهر من أخذ عنهم الشيخ الجلاب و عبد الرحمن الثعالبي و يحي بن يديرو الإمام السنونسي و غيرهم.

و من الذين تتلمذوا على يديه عمر الشيخ، محمد بن أحمد بن أبي محمد التاذختي، عمر الشيخ بن أحمد البكاي، محمد بن عبد الجبار الفجيجي و ابنه الأكبر ابراهيم.

و قد توجه إلى مدينة فاس و أخذ عن شيخ الجماعة بها الإمام بن غازي و الشيخ العاقب بن عبد الله الأتصمتي و الذي هو من أجل أهل أكدز5

و الشيخ العاقب بن عبد الله الأنصمتي الذي اعتبر من تلاميذه و لديه فتاوى ورسائل تدل على سعة اطلاعه في مختلف العلوم الشرعية اضافة الى معرفته بعلم المنطق و اللغة العربية و له العديد من الفتاوى و مسائل تدل على اطلاعاته في مختلف العلوم الشرعية.

و قال عنه أحمد بابا انه: "الفقيه النبيه الذكي الفهم، حاد الذهن الخاطر بالعلم في لسانه حدة".6

و من المدن التي ازدهرت فيها الدعوة و الثقافة الإسلامية و كان للشيخ المغيلي أثر في ذلك في إمارات الهوسا مدينتي كانو و كتسينا بنيجيريا الحالية و كان ذلك في القرن الخامس عشر ميلادي، فقد رحل إلى المدينتين بعض علماء تمكيكوا عام 1485م و نشروا الإسلام و العلوم الشرعية على أهلها و سكان البلدان المجاورة و من بين هؤلاء الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي الذي رحل من توات إلى غرب إفريقيا ، فزار مدينتي كانوا و كنسينا و مدن أخرى، و في الفترة ما بين 1464-1499م و كان المغيلي عالما فصيح اللسان مقدما على الأمور لا يخاف في الحق لومة لائم7.

و اعتبارا مما تميز به الشيخ المغيلي من مكانة مرموقة في العلم و المعرفة و ذلك لما تميز به من عقل و فصاحة لسان و علمه بأمور الحكم و القضاء فقد استشاره سلطان كانو في رسالة بعثت إليه يسأله فيها عن كيفية تسيير إمارته إضافة إلى نصائحه له حول إصلاح شؤون مملكته.8

رسالته لسلطان كانو:

بعد ثورته على يهود توات سافر المغيلي إلى بلاد السودان العربي لنشر الإسلام والدعوة و الإصلاح، و نظرا لما بلغه من أخبار المسلمين في تلك الأقاليم من خلال التجار المارين بتوات ، فدخل أكدز و أسس بها مسجد الكرامة ثم رحل منها إلى كشنة أين انتفع بها جمع كبير من علمه خاصة لما تولى قضاء الجماعة بها، و منها توجه إلى كانو أين ذاع صيته فقربه سلطانها محمد رومفا و الذي اشتهر بسياسته في تقريب العلماء منه لذلك استدعى المغيلي لبلاطه و قد ساعده على القيام بإصلاحات هامة تخص مملكته وتسير أمور رعيته و قد جعله مستشاره الخاص، فوضع له المغيلي رسالة خاصة تعد بمثابة قانون مرجعي لتسيير المملكة.10، لما احتوته من نصائح مثلت في جوهرها المبادئ و الركائز التي يشتد بها عود الحاكم و تقوى سلطته ومنها:

1. إحسان النية للإمارة: بين المغيلي أن الإمارة أو الحكم ابتلاء من الله لذلك كان موقعها بين الهوى و التقوى.و الأجدر بكل عاقل أن يبتعد عنها لذلك يجب إخلاص النية و الاستعانة بالله و التوكل عليه و هو يخاطب سلطان كانو يوجه من خلال خطابه هذه النصائح لسلاطين المسلمين عامة، يقول المغيلي بأن: "الله سبحانه وتعالى ما ولاك عليهم لتكون سيدهم و مولاهم و لكن ولاك عليهم لتصلح لهم دينهم و دنياهم" و هي كما أشار الماوردي في قوله: أن الإمامة موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين و سياسة الدنيا عقدها لمن يقوم في الأمة واجب بالإجماع.11

2. إحسان الهيئة: يركز الشيخ المغيلي على حسن هيئة الحاكم و ذلك بالمحافظة على سكونه بحيث يكون نظره للشيء تفرسا و إطراقة للأمر تفكيرا فيه لأن الإمارة كما يراها المغيلي "مقدمة للنفس الإمارة، فعلى كل أمير أن يتردى برداءة الهيبة في الحضور و الغيبة " و من أهم الصفات التي لابد من توفرها في الحاكم الصدق، فالمرء بأصغريه قلبه و لسانه، قال المغيلي "قدم عقلك تجمع شملك و يعلوا شأنك و يعظم سلطانك، أقبح القبائح اثنان كبر الفقير و كذب السلطان، و ما أقبح الكذب إن كان من ولاة الأمور لأنهم المثل الأعلى للرعية، فالواجب عليهم تنمية فضيلة الصدق في القول و الفعل.12

و يوصي الشيخ المغيلي الحاكم بالوفاء بالعهد لأن ذلك يزيد في هيبته و يجعل مكانته مرموقة بين رعيته، كما يجب على الحاكم أن يتزين بلباس حسن خالي من التشبه بالنساء بعيدا عن المغالاة في استعمال الذهب والفضة و الحرير حتى لا يكون من المفسدين لبيت المال و ذلك لأن الرعية لا يمكنها تصور عدالة الحاكم دون تحليه بالقناعة.13

و قال تعالى في كتابه الكريم: "يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يواري سوءاتكم و ريشا و لباس التقوى ذلك خير"14

3. ترتيب المملكة: يدرك المغيلي أن ترتيب أي مملكة شيء مهم فالحاكم يحتاج إلى عدد من الناس اشتهروا بحزمهم القوي و إلى مجموعة من الحكماء و العقلاء لاستشارتهم وقت الحاجة و لم يغفل المغيلي أهمية الكتاب لما لهم من دور في تنفيذ أصحاب الوظائف في السجلات الخاصة بكل ديوان و ذلك ما يمهل مراقبة أي محاولة لتضييع أموال المملكة و أمناء يقبضون و يصرفون و كتاب و حساب يدرون و يحفظون.

و من الأمور التي تثبت الدين الإسلامي على تطبيق الحدود الشرعية و الحكم بين الناس بالعدل اتخاذ القضاة الذين يكونون على قدر من العلم و التقوى و العفة كما في أيدي الناس.17

و من صفات القاضي العلم بالأحكام الشرعية فهذا يجعله بعم بالقياس بحيث يمكنه رد الفروع المسكوت عنها إلى الأصول المنطوق بها والمجمع عليها و قد قال في هذا الماوردي "حتى يجد طريقا إلى العلم بأحكام النوازل و تمييز الحق من الباطل"18

إضافة إلى إلزامية توفر الحرية فالعبد نقصت ولايته على نفسه، إضافة إلى الإسلام الذي يعد شرطا أساسا في جواز الشهادة، وان يكون عادلا يتمتع بسلامة السمع والبصر.19

و نظرا لقيمة الوزارة في الحكم جعلها المغيلي من الوظائف الأساسية في نظام الحكم الإسلامي شريطة أن يكون الوزير ممن يخشى الله حتى يكون العون و السند الحقيقي للأمير الذي يلجأ اليه في كل أمر و تكون بذلك نصيحته شافية و مشورته صائبة، ومن خلاله يتمكن الأمير من معرفة حقيقة رعيته و أوضاعهم.20

و حتى تتضح المملكة من الاستقرار الداخلي و الأمن من أي عدوان خارجي كان لزاما على الأمير أن يكون جيشا قويا يضم جنود أقوياء حيث يهتم المغيلي بإلزامية توفر المملكة على جيش منظم مع قوة الإقدام و الشجاعة مستشهدا بقوله تعالى:" و أعدوا لهم ما استطعتم من قوة و رباط الخيل ترهبون بها عدو الله و عدوكم و آخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم و ما تنفقوا من شيء في سبيل الله لكم و أنتم لا تظلمون"21.

و من أهم ما يزيد الجيش قوة و ثباتا مشاركة الملك أو الأمير بنفسه في المعارك حيث يكون مظهره و هو يرتدي الدرع و السلاح من أكثر المظاهر تأثيرا في نفوس المجاهدين.22

4. العدل في الأحكام السلطانية: أهم ما ركز عليه كذلك المغيلي هو عدل الأمير أو الملك في الأحكام السلطانية و معاملة جميع أفراد الرعية سواء بسواء لأن للسلطة رجلان لا يمكن تثبيتهما و لا يمكن أن يثبتا حسب المغيلي إلا بالعدل والإحسان23، فقال تعالى:" إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها و إذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ، إن الله نعما يعظكم به إن الله كان سميعا بصيرا يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله و أطيعوا الرسول و أولي الأمر منكم"24.

و كما سبق و أن أشرنا فقد زار المغيلي و ارتحل إلى مدن في غرب إفريقيا و من هذه المدن مدينة كاغو التي استولى فيها على الحكم الحاج محمد 894هـ/1493م بعد أن قام بثورة فيها ضد سني علي الذي كان من أقوى ملوك مملكة سنغاي إلا أنه اشتهر بظلمه و جبروته، حيث كان من سياسته التضييق على العلماء و قد وصفه مؤرخ السودان عبد الرحمن السعدي بقوله:" الظالم الأكبر و الفاجر الأشهر " امتدت فترة حكمه من 869-899هـ/1464-1493م ، غير أن الحاج محمد قد عرف بسياسة تقريب العلماء و الفقهاء فكان المغيلي ممن نالوا حظا كبيرا في بلاطه، و يتضح من خلال ما قدم الحاج محمد سلطان كاغو من أسئلة إلى الشيخ المغيلي أن الشيخ يعتبر أول عالم اتصل بالسلطان، كما تظهر الأسئلة مدى حداثة عهد السلطان بالحكم، و تمحورت النقاط التي أجاب عنها الشيخ المغيلي في ما يلي:

1. السلطان راع لا مالك: فالملك كله لله و يقول المغيلي في ما يلي "قد رفعك مولاك على كثير من عباده لتصلح لهم دينهم و دنياهم لا لتكون سيدهم و مولاهم"

2. إبعاد علماء السوء عن السلطان و مصالح الناس: علماء السوء هم من يأكلون أموال الناس بالباطل و بأعمالهم الدنيئة يصدون عن سبيل الله، و هم سبب انتشار الفساد في جميع البلاد، ويحذر المغيلي منهم بقوله: "بسبب هؤلاء العلماء و العباد شاع الفساد في البلاد فالجهاد فيهم و في أنصارهم أفضل من كل جهاد" و أصل فسادهم أنهم يقرأون القرآن و الحديث و بسردهم كثير من نصوص الكتاب يزعمون بذلك أنهم من أهل الذكر.

3. تقريب أهل الذكر: فهم المصلحون عند فساد الزمان، و يحدد الله للناس دينهم الذي ارتضاه لهم، و لذلك كان لزاما على السلطان الاستماع والرجوع لأهل الذكر في كل تصرفاته التي لا يعلم حكم الله فيها وقاعدة كل أمر في عمله هي أن الخير يثبت و الشر يزال حتى و إن طال أمده و لا يتم ذلك إلا إذا قام أمراء المسلمين كما يقول المغيلي "يحفظ الدين بأن لا يتركوا أحد يتحكم في دين الله بدون علم حتى يكون من أهل العلم و التقوى"26.

4. اتخاذ التحسب: أنكر المغيلي اختلاط الرجال بالنساء بمملكة شغاي27 و لمنع ذلك أمر السلطان باتخاذ المحتسب الذي ينبغي أن يتصف بصفات اللين و الرفق في القول و الفعل و طلاقة الوجه و حسن الخلق فإن ذلك يعينه على أداء مهامه و استمالة القلوب كما يجب أن يكون مسلما ذاكرا عاقلا مواضبا على السنن متعففا عن الرشاوى و الهدايا28 ، و على المحتسب أن يختار من يعينه على أداء المهام ، كما طالب المغيلي من السلطان مراقبة هؤلاء العمال و التأكد من إتمام مهامهم كما يجب على المحتسب استعمال القوة لمنع الفساد و الظلم.

و قد ذكرت المصادر أن جلال الدين السيوطي رحل هو الآخر إلى غرب إفريقيا وأقام بمدينة كنسينا زمنا، يعلم الناس من العلوم الإسلامية ثم عاد إلى مصر 876هـ/1471م 29 .

و قد عرف السيوطي بأنه من علماء الحديث و باعتباره معاصرا للفترة التي كان خلالها الشيخ المغيلي إضافة إلى كونها رحلا إلى نفس المنطقة فقد كانت بينهما مراسلات ذلك لأن المغيلي يعد من أكبر مؤيدي المنطق واستعماله شعره في الأمور العقائدية على غرار علماء تلمسان في تلك الفترة على عكس السيوطي الذي يعتبر من أعداء علم المنطق متأثرا في ذلك بابن الصلاح الذي خرم الأشتغال به.30.

إلا أن تبقى لكل عالم نظرته ذلك لأن كل منهما كان يؤمن بما يجب من قتوى حسب ما كانت تقتضيه البيئة و طبيعة السكان.

المصادر و المراجع:

1. (الحمدي أحمد) محمد بن عبد الكريم المغيلي، رسالة ماجستير،1999-2000 ،قسم الحضارة الاسلامية ،وهران،ص34
2. (بلعالم محمد)، التعريف لبعض الجوانب قي منطقة توات الجزائرية وحضارتها، أعمال المهرجان الأول للتعريف بمنطقة أدرار،1405ه-1985م، ص44.
3. (الحمدي محمد)،المرجع نفسه،ص35.
4. المرجع نفسه،ص35،ص36.
5. المرجع نفسه ،ص36.
6. المرجع نفسه، ص41،ص42.
7. (عمر الماحي عبد الرحمان)، الدعوة الاسلامية في افريقيا، ديوان المطبوعات الجامعية بن عكنون 1992، ص94.
8. الحمدي محمد، نفس المرجع،ص121.
9. نفس المرجع، ص121.
10. نفس المرجع، ص 122
11. (الماوردى ابو الحسن)،الأحكام السلطانية والولايات الدينية ، مطبعة مصطفي الحلبني وأولاده بمصر، ط3، 1973 ،ص05.
12. (ابن خلدون عبد الرحمان) ، ترجمان العبر وديوان المبتدأ والخبر،دار الكتب العلمية ،بيروت، ط1، 1992، ص688.
13. الحمدى احمد، نفس المرجع، ص122.
14. (ابن تيمية احمد)، السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، قصر الكتاب البليدة،الجزائر،ص110.
15. (الحمدى احمد)،المرجع السابق، ص123.
16. سورة الأعراف،الاية26
17. (الحمدي احمد،) المرجع نفسه،ص124.
18. (الماوردى أبو الحسن)، المرجع السابق،ص66.
19. (الحمدي احمد)، المرجع نفسه،ص125.
20. سورة الأنفال، الاية60.
21. (الحمدي احمد)، المرجع السابق،ص127.

22.سورة النساء،الاية58.

23.(الحمدي احمد)، نفس المرجع،ص134.

24.نفس المرجع،ص135.

25.نفس المرجع،ص136.

26.(حلاق على الحسن)،الإدارة المحلية الاسلامية المحتسب،الدار الجامعية، بيروت، ط1980،ص ص 17.18

27.(عمر الماحى عبد الرحمان)،المرجع السابق،ص95.